المجلة الجزائرية للدّراسات الإنسانية
E.ISSN: 8506-2716
ISSN : 2716-7984
المجلد 03/ العـدد:02 (2021)، ص ص 59-72

جدل قيمة الحرية من خلال مفهوم الأسرة بين الدين و تحديات السوشل ميديا

The dialectic of the freedom's value through the family concept between religion and social media challenges.

لبيوض بن علي[1]،

المعهد العالي للحضارة الإسلامية ، جامعة الزيتونة – تونس

zinou2100@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/06/05 تاريخ القبول: 2021/10/29 تاريخ النشر:2021/12/30

ملخص: يثير سؤال الحرية في المجتمع المعاصر و خصوصا في مناخ ما بعد الحداثة إشكاليات على عدة مستويات مما يجعله مفهوما يخضع لتجاذبات ثقافية و آيديولوجية أدت بالخصوص إلى تشكل مفاهيم كالحرية التحررية بتعبير ميشيل كلوسكار، و تتجلى تلك الإشكاليات في أهم مركب بشري وهو الأسرة، حيث إن هذا الأخير بدوره يتعرض لتحويرات سوسيولوجية و مفاهيمية تابعة لتلك الأسئلة الأخلاقية التي تشكل الهاجس الفلسفي للإنسان المعاصر، وسط هذا الفضاء ما بعد الإنساني الذي صنعته التكنولوجيا الحديثة نجد السوشل ميديا منتجا لقيم و مفاهيم تفرض نفسها على المجتمع و بالضرورة على مفهوم الأسرة، في المقابل، يبرز الدين باعتباره عاملا يشكل تحديا في جدل الحرية الناتج عن تفاعلات السوشل ميديا في الواقع الإنساني و يتعامل مع إشكاليات الأسرة المعاصرة.

من هنا يتناول هذا البحث ما تحدثه قيمة الحرية من تشكيلات و صياغات على مفهوم الأسرة في وسط تسيطر عليه السوشل ميديا قيميّا و أخلاقيا، ثم كيف يقارب الدين بمفهوم فلسفي تأسيسي قيمة الحرية و يوظفها لضبط مفهوم الأسرة.

الكلمات المفتاحية : الحرية؛ الأسرة؛الإنسان؛ السوشل ميديا، الدين

Absract : The question of freedom in contemporary society, especially in the post-modern climate, raises problems on several levels, making it a concept subject to cultural and

[1] - **الباحث المرسل**

ideological interactions that led in particular to the formation of concepts such as libertarian liberty as Michel Clouscard said, and these problems are manifested in the most important human component, which is the family. The latter, in turn, is subjected to sociological and conceptual modifications related to those ethical questions that constitute the philosophical premonition of contemporary man. In the midst of this post-humanist space created by modern technology, we find social media as a producer of values and concepts that impose themselves on society and necessarily on the family's concept.

On the other hand, religion emerges as a challenging factor in the freedom's debate resulting from social media interactions in the human reality, and deals with contemporary family problems.

Hence, this research deals with the formations and formulations of the value of freedom on the concept of the family in a medium dominated by the social media, in terms of values and ethics, then, how religion approaches (with a foundational philosophical concept) the value of freedom and employs it to evaluate the family's concept.

Keywords: freedom; family; human; social media, religion

مقدمة :

تعرّف قيمة الحرية في الفضاء التداولي الإعلامي على أنها ممارسة الإنسان لإرادته الكاملة في الواقع دون قسر أو إكراه ، وعادة ما يتم كبح هذا المعنى بحرية الأخرين ، و هذا المعنى هو تجل طبيعي للفلسفة البراغماتية ، و بعد نفوذ الفكر الليبيرالي في الأنظمة والشعوب تبلور مفهوم الحرية التحررية كما يعبر عنه الفيلسوف الفرنسي ميشال كلوسكار ، الذي يقضي بتفكيك أي قيمة تواجه الحرية الفردانية الغريزية ، في هذا السياق يتعرض مفهوم الأسرة لتفكيك فلسفي معرفي و اجتماعي أدى إلى ابتذاله و سطحيته وجعله عرفا تقليديا فقط يقف أمام الحرية في عصر ما بعد الحداثة .

يظهر هذا أمام تحديات السوشل ميديا التي تفرض قيما مادية أبيقورية ممنهجة على جميع الناس ،و تغرس فيهم حسا فردانيا خاضعا للغريزة يتجاهل أي معايير دينية – بعد تفكيك فكرة الدين أصلا – أو أبعاد اجتماعية أو روحية ، إذ تمارس الأفكار النسوية مثلا – باعتبارها حركة تواجه القيمة المتعالية للأسرة– نشاطها و تأثيرها في السوشل ميديا بقوة كبيرة و أوتار عاطفية تستغفل البعد الفلسفي و الوجودي و الأخلاقي ، هذا على غرار مجتمع الميم (LGBT Community) الذي انتشر في الغرب بقوة جعلته ظاهرة عادية و ينشر أفكاره بذريعة الحرية الجنسية و العاطفية و الشعورية النفسية ، مما أدى إلى تشوه و تفكك اجتماعي و أخلاقي و معرفي في مفهوم الأسرة خصوصا والإنسان المعاصر عموما .

جعلنا هذا نتعرض لإشكالية تناولها بحثنا حول جدل قيمة الحرية كونها أهم قيمة تتناولها الآيديولوجيات و المجتمعات المعاصرة ،من خلال السوشل ميديا ، و أبعاد تأثيراته في بنية أهم مركب بشري وهو الأسرة المعاصرة ،

حيث يتفرع عن إشكاليتنا هذه مشكلتان :

1 -ما هي قيمة الحرية التي تسوّق لها السوشل ميديا إزاء مفهوم الأسرة ؟

2 -ما هي الضمانات التي يقدمها الدين لضبط فضاء الحرية و تقويمه و بالتالي الحفاظ على مفهوم الأسرة ؟

المنهج و طريقة البحث :

اعتمادا على المعطيات التي جعلتنا نتعرض لمفهوم الحرية في سياقات متعددة، و أهمها إسقاطاته في السوشل ميديا، و بيان كيف تجلى ذلك على مفهوم الأسرة و قيمها، مما جعل المناقشة تتركز في عنصرين : أولا ، **تأثير قيمة الحرية من خلال السوشل ميديا في مفهوم الأسرة** ، ثانيا، **الدّين ضامنا أنطولوجيا للأسرة و ضابطا للحرية الإنسانية** . فكان هذا التفصيل داعيا لتناوله با لم نهج الوصفي التحليلي و النقدي في بيان سياقات المفاهيم و أبعادها و معترضاتها و تجاوزاتها .

النتائج :

بينت لنا نتائج هذا البحث أن مفهوم الأسرة بواجه تحديات على عدة مستويات في السوشل ميديا، معرفيا و واقعيا و أخلاقيا مما استجلب قيمة الحرية كونها عاملا مهما تعزف عليه الرأسمالية المتأخرة خصوصا ، و التي تعززت بقوة في السوشل ميديا ، و اضطرنا هذا لمعرفة حيثيات هذا المفهوم و استحضار خلفيته المعرفية و حمولته الآيديولوجية ، فيمكن أن نوجز أهم النتائج التي وضحت ما سبق في النقاط التالية :

- السوشل ميديا واقع لا يقل قيمة و لا تأثيرا من الواقع الحقيقي حسب ما تبينه الإحصائيات، بل يتجاوزه في التأثير في الحياة الإنسانية ، بالخصوص في العلاقات الاجتماعية و الأسرة التي صارت خاضعة لتأثير القيم التي تنتجها السوشل ميديا .
- الحرية مفهوم إنساني خضع لتكييفات آيديولوجية فلسفية ، تستغل التعريف العام كونها الحق في التصرف أو التحدث أو التفكير حسب ما يريد الفرد، استثمرت في الانترنت و السوشل ميديا لتعزيز جهازها النفسي و الاجتماعي .

- حاولت الرأسمالية المتأخرة تبيئة قيمة الحرية في نظامها الثقافي بشكل اختزالي يراعي الخصائص النفسية و الاجتماعية للإنسان، عن طريق استغلال الإغراء من جهة الموضوع و اللذة من جهة الذات ، مما جعل مفهوم الأسرة يتفكك في هذه المنظومة تبعا لتفكيك القيم المحيطة به و نقد المفاهيم الكلاسيكية .
- الاستهلاك النهم الذي فرضته السوشل ميديا و تخاطب به الغرائز البشرية جعل مفاهيم الجنس تتغير و تتشوه بمعيار وحيد و هو الرغبة، مما بعد تهديدا وجوديا للأطفال خصوصا في عالم صارت فيه الإباحية مقننة باسم الحرية من جهة ، وكذلك في فتح المجال للناس في العلاقات خارج الزواج و جعله معروضا بسهولة، مما يجعل مفهوم الأسرة مفهوما متوفرا على تكاليف كثيرة في هذا النظام ، و ليصير مما تتناوله الرغبة الإنسانية .
- الحرية في البراديغم الديني و الإسلامي بالخصوص تراعي البعدين ، الروحي والمادي ، على هذا الأساس تتناسق القيم و المبادئ الدينية بمستوياتها مع مفهوم الحرية الذي يضبطه الدين، و يتجلى البعد الواحد الذي ترتكز عليه الحرية التحررية التي تسوقها السوشل ميديا .
- يعتبر مفهوم الأسرة مفهوما ميتافيزيقيا بالأساس ، فقد ثبت أن لا حضارة عبر التاريخ تخلت عن مفهوم الأسرة بغض النظر عن الظروف التي طالته، و هذا في الحقيقة تابع للطبيعة الأنطولوجية للإنسان الذي أدرك عدميته بدون أسرة ، فهو كائن أخلاقي متدين ، و تكون قيمة الحرية التي ينشدها و يريدها واقعا واضحة معرفيا و صادقة واقعيا فقط في هذا النسق ، و هذا ما يجعل الدين حافظا لقيم الأسرة و ضامنا لصلابتها المفاهيمية و ثباتها الوجودي .

تأثير قيمة الحرية من خلال السوشل ميديا في مفهوم الأسرة :

تعتبر قيمة الحرية مفهوما إنسانيا مستفزا في تعريفه و حمال أوجه، شأنه شأن قيمة من قيم الحق و الخير في فلسفة الأخلاق من ناحية ، و في الواقع الاجتماعي و السياسي من جهة أخرى، يرجع هذا الاستفزاز المعرفي و الواقعي إلى

أبعاد المفهوم نفسه التي تتمدد و تتقلص حسب الاستعمالات الآيديولوجية ، والتوجهات الفلسفية و المصالح السياسية، بله الميول الاجتماعية و النفسية ، لنجد أنفسنا أمام جدل و إزعاج ابستمولوجي يطال المفهوم الذي يعتبر أساسا إنسانيا مبدئيا و قيمة وجودية عالمية ...

تعرف الحرية في المجال التداولي المعاصر بالقوة أو الحق في التصرف أو التحدث أو التفكير حسب ما يريد الفرد (Oxford, 2022)، فنجد المعاني المختلفة لمصطلح "الحرية" تتمحور حول ثلاثة محاور رئيسية : الأول هو إمكانية أن يتصرف الشخص كما يشاء لإشباع ميوله وتطلعاته وما شابه (حرية التصرف مقابل القيود والعبودية وما إلى ذلك ، و كذا الحريات المدنية والسياسية...) ، والثاني هو سلطة تقرير المصير دون أي اضطرار بإرادتها، حتى لو كانت من ضغوط ذات طبيعة تختلف قليلاً فقط عن الأنا (حرية الإرادة أوالإرادة مقابل مفهوم الاضطرار) ، والثالث هو تحقيق الذات المنطقية من خلال الهيمنة الداخلية للعقل، والدوافع المتفوقة على المشاعر والدوافع الدنيا (الحرية العقلانية) .(finance, 2018)

فالحرية عموما بحسب معناها الاشتقاقي هي عبارة عن صدور الأفعال وفق الإرادة مع انعدام القسر الخارجي (إبراهيم، (د.ت.)، صفحة 16)

من هذا المفهوم يظهر جذر الإشكالية التي نتناولها ، إذ تخندق بقوة في مواقع التواصل هذا المزاج المفاهيمي من الحرية ليكون قاعدة و مسوغا نظريا و عمليا في تجاوز كل الحواجز الممكنة لسقف المفهوم ، إذ نلاحظ بأبسط جس أن استخدام مواقع التواصل الاجتماعى صار أسلوب حياة، بيد أنه فى الآونة الأخيرة قد تحول من مجرد الاستخدام النفعي نوعا ما إلى حد الروتين اليومى والممارسة المفرطة أو ما يمكن أن نسميه "النهم الاستهلاكى" في العالم كله على غرار العالم الثالث كما هو ثابت في عدة تقارير إحصائية في السنوات الأخيرة ، حيث تصاعد –حسب تقرير The Global State of Digital– عدد مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي بنسبة 10٪ في العام الماضي، وفي الوقت نفسه ، شهد مستخدمو

وسائل التواصل الاجتماعي نموًا أسرع من مستخدمي الإنترنت خلال العقد الماضي. حيث يبلغ إجمالي عدد مستخدمي الوسائط الاجتماعية اليوم 4.62 مليار مستخدم وهو أعلى 3.1 مرة من الرقم 1.48 مليار الذي نشر في عام 2012 ، وهذا يعني أن عدد مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي قد نما بمعدل سنوي بنسبة 12٪ على مدار العقد الماضي (Kemp, 2022)

نرى لهذا تداعيات سلبية على المستخدمين كافة و المؤسسة الأسرية خصوصا كونها مركبا بشريا حيويا لا ينفصل في تأثره عن الواقع و الانترنت ، إذ صارت هذه المواقع تحت شعار منبر من لا منبر له ، من وسيلة متعة عند الغالبية ، إلى وسيلة تأثير ، بدرجة كبرى عن طريق ما يسمى بالايتوس الذي هو مفهوم فلسفي نفسي يشير العادات و العقليات للفرد أو المجتمع ، أو بتعبير حسب السياق يفيد معنى الصورة الشخصية المرسلة وهي خاصية موجودة عند الجميع، أو كيف يريد الشخص أن يبدو، وهذا المفهوم الذي استغلته الرأسمالية المتأخرة –حسب السوسيولوجيّ الفرنسي ميشيل كلوسكار – لتصنع فكرة الإنسان الاستهلاكي (Clouscard, La bête sauvage: métamorphose de la société capitaliste et stratégie révolutionnaire, 1983, pp. 11,15)، و هو إنسان السوق الذي توجهه المتعة والرغبة والانهمام بالذات على تعبير الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو (فوكو، 2015، الصفحات 72,47).

و نجحت الرأسمالية إلى حد بعيد بسبب الاستثمار في قيمة الحرية باعتبارها أهم عنصر محرك فيها ، وثانيا في الايتوس الخاص بالجماهير ، لتصير الرأسمالية فلسفة حياة تفرض نفسها في كل مجال و التكنولوجي بالخصوص في وسائل التواصل الاجتماعي بقوة، على أنها الخيار الوحيد والأوحد المتاح ، في هذا السياق يسمي ميشيل كلوسكار هذه القيمة بالحرية التحررية (Clouscard, 2006, p. 126) (Clouscard, 1982) لذلك نرى تصاعد موجات التحرر الاجتماعي في مواقع التواصل باسم حرية التعبير ، و تصاعد الفكر اليساري في شقه الجندري الجنسي

والأسري الذي من ضمنه التيار النسوي و مجتمع الميم LGBT COMMUNITY الذي انتشر بقوة في الشباب ليقلب معايير الحقيقة الاجتماعية و النفسية ، فيجعل الشذوذ حرية تعبير و هي الحرية الليبيرالية في النسق الرأسمالية التي أشرنا إليها، ولازالت حركات البيدوفيليا تنشط في مواقع التواصل كذلك في عدة دول لتشرعن له في الواقع على أساس الرضا ! كما حدث في فرنسا مؤخرا من وجود نقاش جدي برلماني حول تعديل سن السماح بالعلاقة الجنسية (Witt, 2021) ، و هي ازدواجية المعايير التي طالما تتحدى الانسان المعاصر و مفهوم الأسرة بالخصوص، الذي لم يعد محصنا فكريا مقابل ترسانة المفاهيم الآيديولوجية المستوردة في مواقع التواصل .

من هنا يبدو جليا أن الحديث عن مفهوم الأسرة و تجاذباته لا ينفك عن الجانب الإعلامي و مواقع التواصل خصوصا ، الذي يمثل عاملا مؤثرا في تقييم وتقويم و صناعة و إنتاج الأجهزة المفاهيمية المتعلقة بالأسرة بإنتاج القيم و نحت المعايير عن طريق البرامج و البودكاست podcasts والصور و الفيديو ... و التي تدرس ميولات الفئات الاجتماعية المستهدفة و تراعي أولوياتها وميولاتها كوتر تعزف عليه لنشر المحتوى .

إذ صار الناس يحبون التواصل عبر الإنترنت بدلا من المحادثات الحقيقية فصار لديهم ميول إلى أن يصبحوا أكثر فردية و انطواء ، فعلى الرغم من أن الإنترنت قد قلص المسافات الفيزيائية بين الناس، فإن ذلك لا يعني أنهم تقربوا من بعضهم البعض غلى غرار المسافة العاطفية ! بل إنها في بعض الجوانب زادت ، حيث ينشغل الأشخاص دائمًا بعالمهم الافتراضي ويقضون اليوم فيه و ينسون العالم الحقيقي مع العائلة والأصدقاء ويصبحون حضورا شكليًا.

بالنسبة للأطفال أيضًا فهم يقضون وقتًا أطول في العالم الافتراضي وبالتالي يتبنون أفكارًا خاطئة في نفس السياق تتزايد الجرائم الإلكترونية و صارت العلاقات خارج إطار الزواج سهلة و متاحة (Bosamia, 2013) ، بل مطلوبة في ظل العرض المكثف في السوشل ميديا عن طريق ثقافة الإغواء ، التي ساهمت في تشويش الذوق

العام و خلخلة معايير الجمال و العلاقات الإنسانية ، مما جعل معيار العلاقات والارتباط مبنيا على الإغراء و الإثارة النفسية و اللذة ، من هنا تسقط قيم الأسرة الطبيعية كمركب بشري ضروري باسم ثقافة الانفتاح الليبيرالي ، لتصير الأسرة مجرد تجمع أفراد دون أي مراعاة ولا اكتراث بالمفاهيم الجندرية و أبعادها الاجتماعية والنفسية و الروحية ، هذا برعاية الأجهزة المعرفية و الثقافية التي صنعتها ما بعد الحداثة في الإنسان المعاصر ، اللذة الآنية و المكانية " هنا والآن" (Kerbs, 2002)، فكانت السوشل ميديا توفر علاقات عابرة ابتداء و شعور بالراحة لتحقيق نمط هيدوني في الانسان المعاصر يرتكز على اللذة دون أي معايير أو قيم أو مبادئ ، ببساطة إنه القطيعة مع الإنسان و الأسرة و المجتمع المعياري .

هذا يجعلنا نستوعب تأثير السوشل ميديا في بنية الأسرة عن طريق تصدير قيم نفسية بالأساس تتعلق بمزاج في مفهوم الحرية يرتبط بثقافة الإغواء و ترسيخه في الإيتوس الخاص بالجماهير المتلقية للمحتوى فيصير قناعة شعورية فكرية و عقلية ونفسية ، كون السوشل ميديا –من حيث نمطها الاستهلاكي و التأثير – نتاج رأسمالي بامتياز ، فهي في الأول و الأخير تمثل منطقا ثقافيا و إعلاميا في صناعة القيم وتنميطها حسبها ، و هنا يشير ميشال كلوسكار إلى الفرق بين الحرية الإنسانية والحرية الليبيرالية ، فيرى أن الراسمالية دمجت مفهوم الحرية في نظامها بحيث لا يلتفت إلى مفهوم آخر ولا نظام آخر ، و أن هذا الفرق بين الحرية الإنسانية و الحرية الليبيرالية لو عمل عليه الفلاسفة سيكون هو الذي يرجع الحس السليم و يحافظ عليه في البشر (Clouscard, 1983, p. 12) ، و هذا المعنى حرفيا ترسخ تدريجيا ليصنع ثقافة جديدة في جميع المستويات ، و من باب أولى في مفهوم الأسرة ونظامها: الوالدين و الأبناء.

الدّين ضامنا أنطولوجيا للأسرة و ضابطا للحرية الإنسانية :

تعتبر الأديان عبر التاريخ مهدا اجتماعيا لمفهوم الأسرة و مرافقا له في سيرورته واختلافاته الحضارية، فالدين في تاريخه لم ينفصل عن البشر، بل لم تكن

هناك حضارة دون دين، وهي التسليم يجعل الدين عاملا وجوديا لا يمكن تجاهله في أبسط تحليل أنثروبولوجي أو اجتماعي ، فضلا عن النفسي و الثقافي عموما ، من هنا كان مفهوم الأسرة عبر تاريخه يحتوي معنى مقدسا ، بالأحرى يحتوي معنى مفارقا لمستويات التحليل الوضعية الأفقية الأرضية ...

إذا أردنا ضبط الدين أولا فإننا نعني به " الإيمان بالمطلق المفارق، أو المجاوز، أو المتعالي عن العالم المادي، باعتباره قوى يعتقد فيها الإنسان القدرة و العناية والحساب." (لبيوض، 2018، صفحة 108)

إذا نظرنا للأديان في شقها العملي السوسيولوجي ، سنجدها جميعا تحتوي أنماطا من القيود تدفع عنها الاقتران بمفهوم الحرية التحررية او الحرية الليبيرالية، التي لا يوجد فيها أي ضامن او ضابط وجودي إلا رغبة الذات وسط ثقافة الإغراء .

على هذا ، فإن قيمة الحرية في الأديان السماوية خصوصا مضبوطة أولا بالقيود الإلهية المنصوصة نفسها، في صورة الأوامر و النواهي و التوجيهات والتوضيحات الموجودة في الكتب المقدسة في تلك الأديان و تعاليمها، فهي تضع الإنسان أمام واقعه ، أولا من حيث أن الواقع نفسه يفرض أشكالا من القيود على الإنسان بغض النظر عن مادتها و فحواها ، و الأمر الثاني أنها هي من تضمن ذلك القدر الواقعي من الحرية و توجهه حسب تعاليمها ، و لعل الإسلام أكثر دين شغل عدة مستويات في التكليف و التشريع و الإيمان و الأخلاق و الضوابط ، وفق ثلاثية العقائد و العبادات و المعاملات ، فتكون الحرية قيمة مكفولة لكنها بمفهوم يتسق مع الطبيعة الإنسانية ذات البعدين المادي و الروحي ، من هنا يتجلى الفرق بين الحرية الإنسانية التي تعنى بالإنسان ثنائي القطب بتعبير علي عزت بيجوفيش (بيجوفيتش، 1994م/1414هـ)، وبين الحرية الليبيرالية التي تعنى ببعد واحد في الإنسان لا يتغذى إلا من الغريزة داخليا و الإغراء خارجيا .

بل لا نجد مفاهيم كتحسين السلوك وإصلاح الفرد و تغيير المجتمع و تربية الأجيال وتقرير المصير و تعقل بعدي الزمان والمكان إلا عند الإنسان. وكلها مفاهيم أخلاقية في النهاية.

وإذا أردنا تبسيط نظرتنا للموضوع ، يمكننا القول أن العقل باعتباره عقلا يطلب الأشياء ، فالحيوان يطلب الأشياء كذلك، وإن كان في طلبه هذا أقل شعورا أو كان إدراكه و طلبه لا شعوريا و معدوم القصد –المنوط بمفهوم الحرية–، فالإنسان في طلبه أكثر ذكاء و أوفر قصدا وغاية وتفكرا، وإن أردنا وضوحا، فعقل الإنسان يتوفر على مبادئ عقلية أولية ينطلق منها–وليس محل إثباته– و هو فارق لا يؤثر في الجنس بل الدرجة، لأن مناط الجنس هو طلب الأشياء ، فهو تفاوت في جنس عقليّ واحد... !

بخلاف القيمة ، أو العقل باعتباره عقلا يطلب الصلاح، الذي يقتضي أن يكون الساعي إليه قادرا على استحضار قيم مثلى ليطلب فكرة الكمال–بأي وجه–، فلا وجود لهذه الفكرة ولا ملحظ لها في أفعال و حياة الحيوان بل هو مجرد منها، فالعقل باعتباره يطلب الأشياء يخلو من القيمة، بل يخلو من صلاحية إصدار أي حكم على أي فعل أنه خيّر أو شرير، ونقصد بالفعل هنا مطلق الفعل، لا مجرد فعل سلوكي، بل حتى أفعال التفكر و التأمل لا تخلو من القيمة ، فتفكير الإنسان في مجرد فكرة سيئة مضرة مخالفة للمبادئ، يحكم عليه بالتفكير السيء، و العكس تماما صحيح، وإلا تصير كل أفعاله أشبه بعمليات آلية منها بعمليات آدمية، فلا فرق بينه وبين رجل آلي، فالأخلاق هي من تفتح الأبعاد و تمكن من المواجهة فيقف الإنسان وجها لوجه مع ذاته و الآخر والوجود.

من هنا نقول أن الإنسان هو الكائن الأخلاقي الوحيد، بحريته في الاختيار بين فعل الخير أو فعل الشر، إذ إن الفيلسوف الأخلاقيّ حين يتحدث عن المسؤولية فهو يؤكد في الوقت ذاته أنه لا قيام للأخلاق دون "الحرية"، وقد جرت عادتهم على القول أن الإنسان الفاضل هو ذلك الذي يستطيع أن يرتكب الخطيئة، ولكنه لا

يرتكبها، بمعنى أن الذي يملك حرية أخلاقية يستطيع أن يستخدمها حتى في مخالفة الدين والأوامر الإلهية التي ثبتت عنده، و نشير أنه لا يخفى أن أي تصرف تثبت "لا أخلاقيته" يصير معدودا في التصرفات اللاإنسانية، بينما التصرف الخالي من العقلانية لا يعد خلوا من الإنسانية، إنه بهذا تكون فكرة الأخلاقية أخص من فكرة العقلانية بالمفهوم المطروح أعلاه، والتي هي جنس إدراك للأشياء وطلب لها.

بعد أن توضح مفهوم الحرية الإنسانية أنه قيمة أخلاقية في نهاية أمره وسياقه العملي، يكون مفهوم الأسرة – كغيره من العلاقات الاجتماعية الإنسانية – خاضعا لقيم أخلاقية تضمن صلابته المعرفية (فصل زيقموند باومان في الفصل الثالث في مفهوم الحرية و تشكيلاته البنيوية في عصر حداثة سائلة تسودها الرأسمالية متأخرة باعتبارها آيديولوجيا ثقافية...، انظر المزيد (Bauman، 2009)، وثباته الأنطولوجي، محكوما بمفهوم خاص بالحرية محدد مسبقا بفكرة ميتافيزيقية متعالية عن التعريف الوضعي الأحادي البعد.

إن سلوكات و قيما كالتضحية و العفة و الصدق و الأمانة لا تجد أي مسوغ طبيعي في البعد الواحد ، بل لا يمكنها أن توجد بدون مفهوم الحرية وفق البعدين الوجوديين في الإنسان ، من هنا فإن فريدريك نيتشه نفسه كان يقر أن فكرة الأخلاق فكرة ميتافيزيقية بامتياز، لذلك كان ذكيا في نقضه لها و لكل ما تعلق بها، بل حتى الفلسفة الوجودية لما أرادت تجريد الإنسان من أي قيمة لم تستطع الاستغناء عن مفهوم الحرية الذي هو أصلا مفهوم ميتافيزيقي شأن فكرة الوعي...

هذا لأننا ننظر للأخلاق بعيدا وتعاليا عن المصلحة ولا نربطها بها، فما المصلحة أو اللذة أو سر الرغبة في التضحية و هي كلها مفاهيم ذاتية تنقضها التضحية كمفهوم غيريّ، فالأخلاق يمكن أن تكون مع المصلحة أو ضدها ، لذلك لا تكون الأخلاق أخلاقا إلا بوجود مرجعية متعالية مطلقة، ليكون الإنسان كائنا متدينا حرا ، فيكون بذلك ضرورة كائنا أخلاقيا .

فالدين باعتباره جهازا وجوديا معرفيا قيميا متعاليا، يحفظ مفهوم الأسرة من الإشكالات الآيديولوجية عبر تسويغ القيم الأسرية، فالسكون و الاحترام و الوفاء والإخلاص و المسؤولية و تناسب الذكر و الأنثى هي قيم لا تعرف ضمانة وجودية ومعرفية خارج النسق الديني، بل تكون مجرد مفردات غير ملزمة ، أو مجرد قيم تقليدية عفا عليها الزمن .

فلابد إذن أن يكون هناك مطلق إذن نرجع إليه لضبط الحرية الإنسانية و قيم الأسرة التي تعتبر دعائم مفاهيمية لها، و إذا كنا تغافلنا عن هذا المطلق و خالفنا ذلك القانون الأخلاقي، فليست النهاية وإلا لم يكن من كل كلامنا فائدة ، بل لابد أن يلقى الظالم والقاتل والمعتدي و السفاح حسابه و جزاءه، كما يلقى المحسن والمضحي والصادق والمنقذ ثوابه، و إلا كان مفهوم الحرية عبثيا، و اختل مفهوم الأسرة بداية من قضية الجندر و الجنس إلى القيم المحيطة بها و التي دونها يضمحل الوجود البشري، إذ إن القضايا مترابطة و متوقفة على بعضها، من هنا يشير دائما القرآن الكريم إلى نقطة مهمة جوهرية في الحياة والدين ليؤسس وجودها و غايتها و قوامها : الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، إنها فلسفة متكاملة، تعطي للحياة معنى و تقيم لها وزنا. (لبيوض، 2018، صفحة 112)

المراجع

1) Bauman, Z. (2009). *Doesethics have a chance in a world of consumers?* Harvard UniversityPress.

2) Bosamia, M. (2013). Positive and Negative Impacts of Information and Communication Technology in ourEveryday Life. Dans https://www.researchgate.net/publication/325570282ConferencePaper (Éd.).

3) Clouscard, M. (2006). Critique du libéralisme libertaire. *Humanisme* (1), 126.
4) Clouscard, M. (1983). *La bête sauvage: métamorphose de la société capitaliste et stratégie révolutionnaire.* Paris, France: Editions sociales.
5) Clouscard, M. (1982). *Le capitalisme de la séduction: Critique de la social-démocratie libertaire.* Edition sociales.
6) finance, j. d. (2018, 06 11). *Freedom*. Récupéré sur Encyclopedia: https://www.encyclopedia.com/social-sciences-and-law/political-science-and-government/political-science-terms-and-concepts/freedom
7) Kemp, S. (2022, 01 28). *TikTok Gains 8 New Users Every Second (And Other Mind-Blowing Stats)*. Récupéré sur Hootsuite: https://blog.hootsuite.com/simon-kemp-social-media/#Social_media_users_grew_10_in_last_year
8) Kerbs, R. (2002). L'éthique à l'époque postmoderne. (https://circle.adventist.org/files/CD2008/CD2/dialogue/articles/14_2_kerbs_f.htm, Éd.) *Dialogue , 14* (2), 15-17, 33.
9) Oxford, D. (2022, 02 23). *Freedom*. Récupéré sur Lexico: https://www.lexico.com/definition/freedom
10) Witt, J. (2021, 04 15). Récupéré sur 20 minutes: https://www.20minutes.fr/societe/3021611-20210415-violences-sexuelles-mineurs-parlement-adopte-jeudi-texte-protection-mineurs
11) بن علي لبيوض. (2018). *إشكالية سؤال الأخلاق في السياق ما بعد الحداثي – تحليل و نقد –*. مذكرة ماستر لجامعة وهران 1 – الجزائر.
12) زكريا إبراهيم. ((د.ت.)). *مشكلة الحرية* (الإصدار 2). مصر: دار الطباعة الحديثة.
13) علي عزت بيجوفيتش. (1994م/1414هـ). *الإسلام بين الشرق والغرب* (الإصدار 1). (محمد يوسف عدس، المترجمون) الكويت: مجلة النور الكويتية.
14) ميشيل فوكو. (2015). *الاهمام بالذات : جمالية الوجود و جرأة قول الحقيقة*. المغرب: إفريقيا الشرق.